كتاب الاعتبار

د. عبدالقدوس أبو صالح

إن من أبدع ما ترك الأول للآخر، وما خلف لنا السلف الصالح كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنه من أوائل كتب التراث الجديرة بأن توضع بين أيدي شبابنا وفتياتنا، لأنه يمثل الفروسية الإسلامية والفتوة العربية في عصر الحروب الصليبية، ويقدم للأجيال المعاصرة صورة صادقة عما كان عليه أجدادهم من رجولة تامة وشجاعة فائقة، وما كان لهم من مدنية زاهرة وحضارة شامخة مما جعلهم يشرفون على الغزاة الصليبيين من قمم عالية، ويدحرون حملاتهم المتلاحقة، ويستنقذون القدس من رجسهم، ويطهرون البلاد منهم بعد أن أقاموا لهم دويلات متعددة في نحو قرنين متتاليين.

ويعد كتاب الاعتبار بحق أول كتاب في السيرة الذاتية في أدبنا العربي إن لم نقل في آداب الأمم كلها، وقد ألفه أسامة ابن منقذ بعد أن نيّف على التسعين من العمر، مدوناً فيه مذكراته الشائقة، وتجاربه المثيرة في حياته الحافلة بالجهاد والمغامرات حتى سماه صلاح الدين « فارس الأمة» وحتى أصبح اسمه في كتب التراجم والتاريخ مرادفاً للبطولة.

ونحن نرى في كتاب الاعتبار أثر العقيدة في شخصية أسامة حين تدفعه إلى الإقدام في الحرب غير هياب ولا وجل، لأن المسلم يؤمن – كما يقول أسامة – بأن «الله مقدر الأقدار، ومؤقت الأجيال والأعمار» وأن «ركوب الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب». وهو يقول في مكان آخر: «فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، واقتحمت المخاوف والأخطار، ولا قيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام.. وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين».

ويحدثنا أسامة في كتابه كيف كان والده يعوده على الشدة والجرأة، فيتركه يمسك أفعى هائلة بيده، ويقتلها بخنجره، وهو غلام صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره، وهو يقول عن والده: «وما رأيت الوالد – رحمه الله – ينهاني عن القتال ولا ركوب خطر، مع ما كان فيّ، وأرى من إشفاقه وإيثاره لي». بل كان والده يصطحبه إلى صيد الأسود، ويشركه في القتال والغارات، مع ما كان يأخذه به منذ صغره من إقبال على العلم، وتعويد على قراءة القرآن حتى يسأله كل يوم عن حصته من القرآن.

ولم تكن النساء أقل شأناً من الرجال آنذاك إسهاماً في تربية أولادهن على الجرأة والإقدام. وقد ذكر أسامة في كتابه طرفاً من مواقفهن الرائعة، التي تنطق بشجاعة المرأة المسلمة، وما تغرسه في نفوس الأبناء، وتثيره في نفوس الرجال من الحمية والحماسة. فها هي ذي امرأة عجوز تضرب الصليبيين بالسيف، وها هي ذي أخرى تأسر ثلاثة من رجال الإفرنج، وها هي ذي إحدى النساء ترى ابن عم لأسامة يركن إلى الفرار فتقول له: «ويحك وأي عيشة تعيشها إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم». وها هي ذي امرأة مسلمة تقتل زوجها بيدها لأنه أعان الصليبيين على قومه، وها هي ذي أخيراً أمُّ أسامة ترى الأعداء يحاصرون الحصن، ويكادون يصلون إليها، فتُجلس ابنتها على رَوْشَن عال مطل على الوادي السحيق، وهي تهم بإلقائها وإلقاء نفسها منه حتى لا تقعا في أيدي الأعداء.

وكل ذلك جعل أسامة يقول فيهن: «فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال.. وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي.. ولعمري إنهن أمهات الرجال».

و أقول أخيراً: إن كتاب الاعتبار جدير بأن يعاد نشره نشرة ميسّرة، تحببه إلى قلوب القراء، ليكون رفيقاً للطالب في أوقات فراغه، وأنيساً للجندي المسلم المرابط في جبهته، ونبراساً للأمة التي يريد التاريخ أن يعيد نفسه على أرضها التي روّتها الدماء، وكانت دائماً أرض البطولات ■